الأمير إيفان الثالث (1462 – 1505) ودوره في توحيد روسيا

د.سامي صالح الصياد/ مركز صلاح الدين الأيوبي للدراسات التاريخية والحضارية/ جامعة تكريت

تقديم:

كانت روسيا القديمة عبارة عن مجموعة إمارات إقطاعية مجزأة، أكبرها كييف (عاصمة روسيا القديمة) وعاصمتها أوكرانيا الشمالية أصبحت في القرن الحادي عشر من اكبر مدن أوروبا وكان حكامها من أسرة روريك[1]، وكذلك إمارة موسكو وإمارة نوفجورد "Novgorod" وهاتان الإمارتان كانتا مجزأتين إلى عدة إمارات إقطاعية مستقلة بعد أن تم احتلالها من قبل المغول ولأكثر من مرة، وقد تمكن المغول منذ عام 1240 من السيطرة على اغلب الأراضي الروسية، واستقروا في مناطق السهول على ضفاف نهر الفولغا واكدون وأقاموا هناك دولتهم التي سميت دولة الأورطة أو القبيلة الذهبية[2]، واستمر حكمهم لأكثر من قرنين من الزمان، عرقل خلالها التطور الاقتصادي والسياسي والثقافي في روسيا، التي كانت قبل الغزو المغولي إحدى الدول الأوروبية المستقلة[3].

وعلى الرغم من إن الأمير إيفان الثاني[4] كان حاكماً وديعاً يؤثر السلام إلا إن ابنه ديمتري "Dimitrii" قد تميز بكل الصفات التي تتطلبها الحرب والقتال، فهزم كل منافس له، وحصلت في عهده معركة كبيرة ضد المغول قرب نهر الدون سميت معركة كوليكوفو "Kulikovo" في 8 أيلول 1380م وانزل الهزيمة بهم ولقب بعدها بلقب دونسكوي "Downskoi"[5]، إلا إن المغول أعادوا الكرة في عام

(1) روريك: هي أسرة سويدية تنحدر من قبائل الفايكنج تنتمي إلى قبيلة ورنك حكمت روسيا (نوفجورد)، وروريك "Rorik" هو أكبر إخوته الثلاثة (روريك، سينوس، تروفور) جاؤوا إلى إمارة نوفجورد في عام 862م باستدعاء من أهلها، وهناك مات أخوة روريك وبقي هو يحكم روسيا القديمة، وبعد انهيار الدولة الروسية القديمة تحولت إلى إمارات إقطاعية ظلت تحكم من قبل أفراد هذه الأسرة. للمزيد من التفاصيل ينظر: مشعل مفرح ظاهر الشمري، روسيا القيصرية في عهد القيصر بطرس الأكبر 1689 – 1725، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2006، ص9.

(2) الأورطة الذهبية: هي مملكة أسسها المغول في القرون الوسطى، امتدت من سيبيريا حتى جنوب روسيا، سميت بهذا الإسم لأن الخيام التي كانوا يستخدمونها لونها أصفر ذهبي. للمزيد من التفاصيل ينظر:
J.J. Saunders, The History of the Mongol Conquest and Russia, Yale, 1970, P.1.

(3) وليم لانجر، موسوعة تاريخ العالم، ترجمة: عبد المنعم أبو بكر، ج4، القاهرة، 1970، ص848.

(4) ينظر الملحق رقم (1) الذي يشير إلى أسماء أمراء وحكام روسيا حتى ثورة عام 1917.

(5) ول وايريل ديورانت، موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: محمد علي أبو درة، المجلد الثامن والثلاثون، (الإصلاح الديني 2)، دار نوبليس للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ص12.

1382 ولم يستطيع الروس الوقوف بوجههم فتمكنوا من الاستيلاء على موسكو وقتلوا نحو أربعة عشر ألفاً من السكان واحرقوا المدينة برمتها[6].

وفي بداية القرن الخامس عشر بدأ هذا الواقع بالتغير في أمارات روسيا[7] باتجاه التقارب ومن ثم إلى التوحد بين تلك الإمارات، وكانت هناك عوامل ساعدت على توحيد تلك الإمارات قبل اعتلاء الأمير إيفان الثالث الحكم ونأتي على أهمها:

1. إن الأمير ديمتري دونسكوي (1359 – 1389م) أوصى بالحكم من بعده إلى ابنه فاسيلي الأول ومن بعد فاسيلي إلى أخوه يوري دونسكوي، وعند وفاة ديمتري اعتلى فاسيلي كرسي الإمارة (1389 – 1452م) ولم يكن قد تزوج بعد، وخلال مدة حكمه تزوج وأصبح لديه أبناء ذكور، الأمر الذي جعله ينقض وصية والده ونقل بوصية جديدة الحكم إلى ابنه فاسيلي الثاني (1425 – 1462م) مما أدى إلى حرب بين يوري وابن أخيه فاسيلي الأول استمرت طويلاً، وبعد موت يوري خلفه ابنييه كرسوي وشيمياكا، وشيمياكا هو الذي تمكن من الانتصار على فاسيلي الثاني بن فاسيلي الأول، بعد اعتلاءه الحكم وأخذه أسيراً وسمل عينيه، فأصبح يلقب يتومني (Tomny)، أي الأعمى فأصبح يعرف فاسيلي يتومني[8]، توسط المطران المسيحي الأرثوذكسي لدى شيمياكا يشأن فاسيلي الثاني فاستجاب لذلك وأطلق سراح فاسيلي الثاني وأعطاه إقطاعة ارض في موسكو، إلا إن فاسيلي الثاني لم يستكن للأمر وبدأ يقوي أتباعه وجيشه (تدريباً وتسليحاً وعدداً) ودخل حرب جديدة مع شيمياكا وتمكن بعد حرب استمرت عشرون عاماً من الانتصار على شيمياكا، واستولى على الكثير من ممتلكاته وإقطاعاته قرب موسكو، وعاد إلى عرش الإمارة الكبرى من دون منازع وبمساعدة أعيان موسكو، البويار[9]، ونبلائها الدفوريان[10]، وكون بذلك

(6) وليم لانجر، المصدر السابق، ج4، ص845 – 848.

(7) كانت في الأمارات الروسية، الأرثوذكسية هي المذهب المسيحي الشائع، والسلافية هي اللغة السائدة.

(8) بيار سولاف بيمانوف، تاريخ الاتحاد السوفيتي، موسكو، د.ت، ص103.

(9) البويار Boyars: وهم الطبقة العليا في المجتمع الإقطاعي الروسي ذوي الامتيازات، كانوا يقدمون مشورتهم وخدماتهم للأمير، ومنهم قادة في الجيش وحكام أقاليم. للمزيد من التفاصيل ينظر:

Soviet Skaya Istori Cheskayaentsi Lopediya, Tom.5, Mockva, 1962, P.20.

(10) الدفوريان: هم النبلاء أقل شأناً من البويار، والفرق بينهم وبين البويار هو نوع الملكية في الأرض، فالدفوريان هم الذين يملكون الأرض ويؤدون التزاماتها، ثم يرثها أبنائهم الذين تفرض عليهم الالتزامات نفسها، وإن لم يكن له وريث تستعيدها الدولة، أما البويار فلا تستعيدها الدولة. للمزيد من التفاصيل ينظر:

Ibid., P.21.

إمارة كبيرة تظم موسكو وما حولها مما دعا شيمياكا إلى الرحيل إلى بولندا، وكان رحيل شيمياكا هو احد الأسباب المهمة التي عجلت في توحيد البلاد[11].

2. استخدم الأمراء الروس سياسة اقتصادية (تجارية) رشيدة وصحيحة وتقدمية أدى إلى تطور العمليات التجارية بشكل عام، وعلى الرغم من إن هذا التطور الاقتصادي كان بطيئا مقارنة بما وصل إليه في فرنسا واسبانيا وانكلترا إلا انه أدى دوراً فاعلاً في تطور المجتمع ونشوء الطبقة البرجوازية، وكانت هذه التجارة التي انتشرت بشكل واضح ونشوء الطبقة البرجوازية هي التي دعت إلى التغلب على النزعة الفردية التي كانت سائدة آنذاك لدى الأمراء وفرضت توحيد روسيا[12].

إيفان الثالث 1462 – 1505م والسعي لتوحيد الأمارات الروسية:

ولد إيفان الثالث بن فاسيلي الثاني (يتومني) في عام 1440م وعينه أبوه ولياً للعهد وهو في السادسة عشر من عمره[13]. شهد الأحداث التي جرت في عهد والده، وتأثر للغاية بحادثة سمل عيني والده التي تركت في نفسه حقداً دفيناً على الأمراء والبويار والروس الانفصاليين، كما اكتسب إيفان من والده نزعة التعصب الأعمى للكنيسة الروسية الأرثوذكسية والعداء الشديد للكنيسة الغربية الكاثوليكية[14]. تزوج إيفان من ابنة أمير تفير لأسباب سياسية تهدف إلى تهدئة التوتر وتوطيد العلاقات مع إمارة تفير المنافسة التقليدية لإمارة موسكو آنذاك، وأنجبت له زوجته ولداً اسماه إيفان أيضاً[15].

شارك إيفان الثالث في الحملات العسكرية ضد المغول في عهد والده ولاسيما في الأعوام 1448 و1454 و1459، وبعد وفاة والده الذي ترك له قوة عسكرية قوية تمكنت في عهده من السير في طريق توحيد الإمارات الروسية.

تولى عرش الإمارة في عام 1462 وعمره نحو 22 عاماً، وكان لديه برنامجه الخاص المتعلق بمكانة ومستقبل دولة إمارة موسكو وعلاقتها مع الإمارات الروسية الأخرى ودورها في أوروبا الشرقية.

(11) هاشم التكريتي، محاضرة ألقاها على طلبة الدكتوراه في كلية الآداب، جامعة بغداد، بتاريخ 2003/2/24.
(12) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص13.
(13) إيفان الثالث: أول قيصر روسي. ينظر:
http://arabic.rt.com. P.1;
نعيم فرح، تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، دمشق، 1995، ص151.
(14) www. ar. Ivan III of Russia. Wikipedia, P.1.
(15) Ibid, P.2.

كان إيفان الثالث رجل دولة دبلوماسي كبير قوي العزيمة دؤوبا في تنفيذ سياسته وكان شديد مجرد من المبادئ الخلقية لا يتورع عن شيء، حاد الذهن ماكراً حذراً عنيداً قاسياً، وكان يقود جيشه إلى النصر على مسافات بعيدة وهو مستقر في مكانه في الكرملين[16]، كان يعاقب على العصيان والعجز والقصور عقاباً وحشياً، بأن يعذب ويضرب بالسياط أو يبتر أطراف حتى أعضاء المجلس، وبمثل هذه الطريقة كان يسيطر على حاشيته حتى إن النساء ليغمى عليهن لمجرد نظرة منه[17]. وبسبب ذلك كان يطلق عليه إيفان الكبير وأحيانا إيفان المرعب 0

وفور اعتلاء إيفان الثالث عرش الإمارة توجه نحو توطيد سلطته الشخصية المطلقة في داخل إمارة موسكو[18]، من خلال الاعتماد على الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا يحصلون على الأراضي مقابل الولاء الكامل لإيفان الثالث والخدمة لديه، كما عمل على تقليص نفوذ البويار الذين يمتلكون الأراضي بالتوارث ومن ثم توجه إلى توحيد الإمارات الروسية وإلحاقها بالقوة بإمارة موسكو[19].

خاض إيفان الثالث نضالاً مريراً من اجل توحيد الأراضي الروسية، ففي عام 1468 نظم حملة عسكرية على إمارة ياروسلافل "Iaroslavl" الشمالية الشرقية واحتلها بشكل كامل بعد أن أباد كافة الأمراء البويار الرافضين الانصياع لسلطة أمير موسكو[20].

كانت إمارة نوفجورد أطول واعقد فتوحاته، وعلى الرغم من إن القوات العسكرية في إمارة موسكو كانت أفضل تدريباً وتسليحاً من الإمارات الأخرى، ورغم تمكن إيفان الثالث من الانتصار والاستيلاء على نوفجورد وفرض عليها معاهدة في عام 1471، إلا إن الأمر كان معقداً واستمر إلى سنين لاحقة.

في هذه المرحلة العصيبة من عام 1472 توفيت زوجة إيفان الثالث فقرر وفي السنة ذاتها عقد قرانه على الأميرة زوبا (صوفيا) باليولوغ ابنة أخ آخر إمبراطور بيزنطي والتي تقيم في روما، بعد أن

(16) الكرملين: هو الجزء المحصن في المدن الروسية وعادة ما يكون محاطاً بأبراج عالية وخندق مليء بالماء، ويوجد بداخله قصر الأمير والكاتدرائية، وبنايات الإدارة وقصور كبار البويار والدفوريان. للمزيد من التفاصيل ينظر:
Sovet Skaya Istori Cheskayaentsi Lopediya, Tom.5, Op. Cit., 1962, P.58.

(17) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص14؛ الكسيف كارتسوف تروتسكي، موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة محمود الجندي، دار التقدم، موسكو، 1974، ص16.

(18) كانت إمارة موسكو تقع وسط سهول فسيحة ممتدة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ولا تستطيع أن تجد بسهولة حدوداً طبيعية ترتكز عليها، ومنها اتجه الروس إلى الشرق، وتوسعوا حتى توغلوا في سيبيريا، ولم تتضح معالم إمارة موسكو إلا في عهد إيفان الثالث، وموسكو هي عاصمة البلاد الدينية منذ عام 1327. للمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الفتاح حسن أبو عليه وإسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، الرياض، 1993، ص207.

(19) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.2.

(20) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.2.

فتحت القسطنطينية في 29 أيار 1453 على يد السلطان العثماني محمد الفاتح[21]. وكان زواج إيفان الثالث من الأميرة البيزنطية وبمساعدة البابا الاسكندر السادس نفسه، يهدف إلى أمرين مهمين: أولهما يخص روسيا وهو رفع مكانة وهيبة إمارة موسكو في المنطقة وتضمن مغزا سياسياً وتاريخياً ودينياً، انحصر في طموح إمارة موسكو الروسية لوراثة الإمبراطورية البيزنطية في تزعم العالم المسيحي الأرثوذكسي[22]، أما الأمر الآخر فهو يخص البابا والأسرة الإمبراطورية السابقة وهو رغبتهم في اجتذاب الروس إلى كنيسة روما الكاثوليكية، غير إن هذه الجهود وهذه الرغبة التي سعى إليها البابا والأسرة الإمبراطورية باءت بالفشل[23].

استمر إيفان الثالث بضم الإمارات الروسية إلى إمارة موسكو، إذ قاد حملة عسكرية جديدة توجه بها إلى إمارة روستوف "Rostov" الشمالية الشرقية وضمها بالقوة إلى إمارة موسكو[24].

لم تنته مشكلة إمارة نوفجورد بعقد المعاهدة سالفة الذكر والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف نظام حكم إمارة نوفجورد السياسي عن نظام الحكم الاستبدادي في موسكو، فقد كان مجلس الفيتشة[25] المنتخب من قبل تجار وحرفيين وبويار نوفجورد هو الذي يحكم الإمارة والأراضي التابعة لها، وعارض مجلس الفيتشة الانصياع لسلطة أمير موسكو إيفان الثالث[26]، ولما أحس مجلس الفيتشة بخطر إيفان الثالث بعد أن حرضه للسيطرة على نوفجورد تجار موسكو والقضاء على منافسيهم في الشمال، وفعلاً سار الأمير العظيم[27] بجيش كبير وسيطر على السهول الممتدة بين موسكو ونوفجورد، حيث المكان الذي تتم فيه العمليات التجارية، تشتري المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها[28]، الأمر الذي أوقع

(21)روي في الأثر غن فتح القسطنطينية حديث شريف للرسول الكريم محمد (ﷺ): "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الجيش ذلك الجيش ولنعيم للأمير أمير ذلك الجيش".

(22) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.4.

(23) ورمرز، المصدر السابق، ص35.

(24) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.3.

(25) هو مجلس منتخب من قبل أصحاب الأملاك والبويار، ويعد أعلى سلطة تشريعية في إمارة نوفجورد.

(26) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.2.

(27) هو لقب إيفان الثالث الذي أمر أتباعه أن يطلقوه عليه.

(28) وأهم تلك البضاعة هي الحيوانات ذات الفراء، وكذلك الفراء اللذان كانتا تشكلان عصب الاقتصاد حتى دعا ذلك الأوربيون الباحثون عن الفراء والثروة السفر إلى روسيا، للمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص248.

إمـارة نوفجـورد فـي ضـائقة مثلـت أحـد الأسـباب التـي أدت إلـى خضـوعها واستسـلامها للأميـر إيفـان الثالث[29].

هذا الأمر دعا مجلس الفيتشة إلى التوجه نحو التحالف مع إمارة ليتوانيا الكاثوليكية والاحتماء بسلطة أميرها كازمير الرابع، وتكلل ذلك التحالف بالتوقيع على اتفاق رسمي اعترفت فيه إمارة نوفجورد بالخضوع لعرش كازمير الرابع الذي تعهد هو الآخر بالحفاظ على الأوضاع الداخلية في نوفجورد[30].

استمر الصراع بين إمارة موسكو وإمارة نوفجورد طويلاً للمدة من عام 1471 وحتى عام 1478، إذ ثار ذلك الاتفاق الذي تم بين إمارة نوفجورد وإمارة ليتوانيا إيفان الثالث فجهز حملة عسكرية كبيرة جديدة على إمارة نوفجورد وأخضعها بقوة السلاح إلى إمارة موسكو وألقى القبض على أمرائها وكذلك البويار الذي كان الشعب النوفجوردي قد كرهم، وقتل منهم الكثير[31]، ونقل ما يقارب (7000) سبعة آلاف من صفوة سكانهم إلى سوزدال وصادر أراضي وأملاك البويار ووزعها على الإقطاعيين الموسكوفيين مقابل الخدمة لدى أمير موسكو، كما طرد عصبة الهانسا أو الهانزا[32] والتجار الألمان، وورث تجار موسكو أسواق نوفجورد بشكل كامل[33].

كان لاستيلاء إيفان الثالث على نوفجورد المترامية الأطراف نتائج بعيدة المدى، فقد وصل حكمه إلى السواحل الشمالية من إقليم نيفا حتى أصبح لأمارته اتصال مباشر بساحل بحر البلطيق من دون عائق[34].

وما أن ضم إيفان الثالث إمارة نوفجورد وتوابعها حتى بسط نفوذه على فلندة والمنطقة المتجمدة والأورال، وخضعت بسكوف، وطلبت تفير أسباب الحماية عن طريق التحالف مع ليتوانيا، ولكن إيفان الثالث سار إلى المدينة بنفسه واستولى عليها من دون أن يضرب ضربة واحدة، كما ضم أيضاً ثلاثة أرباع الأراضي التابعة للكنيسة[35].

---

(29) ديورانت، المصدر السابق، ج 38، ص14.

(30) Ivan III of Russia, Op. Cit., P.3.

(31) Reinhard Lvittram, Russia and Europe, London, 1988, P.16.

(32) الهانزا: هي اتحاد أو عصبة اتحاد تجاري يتكون من مجموعة من المدن أهمها: ريغيل وريغا، ومن ثم أنظمت إليها نوفجورد الكبرى كان له تأثير في العمليات التجارية بين موسكو وما حولها. للمزيد من التفاصيل ينظر:
Fisher, The Russian fur Trade (1505 – 1770), London, 1943.

(33) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص14.

(34) ينظر: الكسيف كارتسوف، المصدر السابق، ص29 – 32.

(35) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص15.

التخلص من السيطرة المغولية:

كانت الإمارات الروسية قبل أن يوحدها إيفان الثالث تدفع الجزية لخانات المغول لمدة استمرت من 1240 وحتى عام 1480، وفي عام 1480 أرسل أحمد خان المغول بعثة إلى الأمير إيفان الثالث تحمل رسالة تدعوه فيها تسليم الجزية السنوية لمبعوثيه، وما أن دخلت البعثة على إيفان الثالث وسلمته رسالة الخان أحمد حتى أفزعهم ما رأوه، حين مزق إيفان الثالث تلك الرسالة ورماها على الأرض ووطأها بقدميه وقال لهم: "قولوا لخانكم ما حدث لرسالته، وانه سيحدث له نفس الشيء إذا لم يترك الأراضي الروسية بسلام"[36].

فزع بعض البويار الحاضرين مجلس إيفان الثالث من سلوكه هذا وحاولوا أن يثنوه ويستميلوه إلى الطاعة والاستجابة لأمر الخان، وقلق الشعب أيضاً من ذلك، وذات مرة بينما كان الأمير الكبير يسير في أحد شوارع موسكو أحاط الموسكوفيون به صائحين: "أنت تقدر على ابتزاز الضرائب من الشعب، فاقدر على حمايته أيضاً"[37].

يبدو إن إيفان الثالث قال ذلك للبعثة المغولية وهو مطمئن لقوة جيشه وتسليحه من جهة، وثقته بأن القوات المغولية كانت متناحرة ومتنازعة وقد توزعت إلى ثلاثة أقسام في سراي "Sarai" وقازان "Kazan" وفي القرم "Karem"، وأنها لن تتحد ضده في جبهة واحدة من جهة ثانية.

ويتضح من ذلك أيضاً إن سياسة إيفان الثالث تجاه الأورطة الذهبية قد تغير بشكل جذري، ففي السابق كانت سياسته دفاعية، أما الآن فقد أصبحت سياسته هجومية، وتبين هذا من امتناعه دفع الجزية لبعثة الخان المغولي، وكذلك عدم ذهابه إلى مقر الأورطة الذهبية لتقديم فروض الولاء والطاعة لخان المغول.

استعد إيفان الثالث أمام تلك الأحداث إذ قام بمجموعة أعمال تنم عن براعته السياسية والعسكرية وأهمها:

(36) الكسيف كارتسوف، المصدر السابق، ص31.

(37) للمزيد من التفاصيل ينظر: رولان موسنيية، تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس عشر والسابع عشر، نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، 1966.

قام إيفان الثالث بالتحالف مع مينجلي جيراني خان القرم ضد الخان أحمد، فاستطاع بذلك تأمين الجبهة الثالثة من المغول بدبلوماسيته[38]، أما في الجانب العسكري فقد قسم قواته إلى ثلاثة أقسام : قسم أرسله إلى مركز الأورطة الذهبية لمشاغلة قوات الخان وضربها من الخلف، والقسم الآخر أرسله لمحاربة أمير ليتوانيا كازمير الرابع الذي كان قد تحالف مع الخان أحمد، أما القسم الثالث والأكبر من قواته العسكرية قاده بنفسه لمواجهة القوات المغولية[39].

وبعد ورود خبر البعثة واستعداد إيفان الثالث للقتال، إلى الخان أحمد، عزم الخان المغتاظ على معاقبة الأمير الروسي الخارج عن طاعته، فقاد جيشاً كبيراً باتجاه ضفاف نهري أوكا وأوغرا جنوب موسكو، وتقابل الجيشان الروسي متحالفاً مع خان القرم من جهة والمغولي المتحالف مع ليتوانيا من جهة أخرى، على ضفتي نهر أوغرا، وبقيت تلك الجيوش طيلة صيف عام 1480 متقابلة لم يتمكن أي منها اجتياز النهر[40].

حل فصل الشتاء وتجمدت مياه نهر أوغرا وأصبح بإمكان الجيشين عبور النهر مشياً على الأقدام إلى الضفة الأخرى، إلا إن الذي حصل هو العكس، فقد أمر الخان أحمد جيشه بالتراجع والانسحاب، وكان ذلك لعدة أسباب جاءت متزامنة مع تجمد مياه النهر أهمها:

1. إن كازمير الرابع أمير ليتوانيا الذي كان قد تحالف مع الخان أحمد، لم يقدم أي مساعدة للجيش المغولي.

2. تهديد مركز الأورطة الذهبية من قبل قوات إيفان الثالث التي أرسلها لذلك الغرض وضرب قوات الخان أحمد من الخلف.

3. النزاع الداخلي بين الخانات المتنافسين على عرش الأورطة الذهبية التي استمرت حتى رجوع الخان أحمد إلى العاصمه سراي. ولم ينته ذلك النزاع إلا بمقتل الخان أحمد[41].

ومقابل ذلك أصدر إيفان الثالث أوامره إلى جيشه بالانسحاب بدلاً من تعقب الجيش المنسحب، ويعد ذلك انتصاراً كبيراً لإيفان الثالث الذي سمى نفسه بعدها الحاكم المطلق (أي الذي لا يدفع الجزية لأحد)، ومن نتائج ذلك وبعد موت الخان أحمد قضي على سلطان المغول واندثرت الأورطة الذهبية وإلى

(38) هاشم التكريتي، المصدر السابق، 2003.
(39) المصدر نفسه.
(40) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص15.
(41) هاشم التكريتي، المصدر السابق، 2003.

الأبد في عام 1502م، وتحررت الأراضي الروسية من ربقة الاحتلال المغولي بعد أن حكموا روسيا نحو 250 سنة[42].

استمر إيفان الثالث بضم الإمارات الروسية الأخرى بعد أن تخلص من المغول، فقد عاد إلى إمارة تفير وحاصرها مرة أخرى (كان يحكمها ميخائيل أخوه الأصغر) فاضطره بذلك إلى الاعتراف بحكم إيفان الثالث في عام 1485، كما خاض حربين كبيرتين الأولى بين عامي 1487 – 1494م، والثانية بين عامي 1501 – 1503م ضد ليتوانيا أسفرتا عن ضم أقاليم ومقاطعات كثيرة إلى روسيا تقع وراء نهري الدنيبر والدونا وأهمها سمولينسك، وتشيرنيغرف "Chernigov"[43]. وما كان من أمراء ليتوانيا الذين استشعروا القلق في ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولندي إلا أن يفتحوا أبوابهم أمام جيوش إيفان الثالث وهزم الاسكندر أمير ليتوانيا في عام 1503، ورتب البابا الاسكندر السادس هدنة لمدة ستة سنوات مع إيفان الثالث[44].

توفي الأمير الكبير[45] إيفان الثالث في عام 1505 بعد تعيين ابنه فاسيلي الثالث ولياً للعهد من بعده.

أهم إنجازات إيفان الثالث:

فضلاً عن الإنجازين العظيمين الذي حققهما إيفان الثالث وهما : توحيد الإمارات الروسية في دولة واحدة، والتخلص من السيطرة المغولية، كان لإيفان الثالث مجموعة إنجازات أخرى يمكن إجمالها بما يأتي :

(42) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص15.
(43) إيفان الثالث أول قيصر روسي، المصدر السابق، ص2.
(44) ديورانت، المصدر السابق، ج38، ص16.
(45) كان لقب الأمير أو الأمير الكبير هو السائد في تلك المدة ويمثل أعلى هرم السلطة في روسيا، وبقي هذا اللقب حتى عام 1547م، إذ قام إيفان الرابع (الرهيب) الذي حكم روسيا في (1533 – 1584م) الذي اتخذ لقب تسار أي القيصر الروسي بدلاً من الأمير الكبير، واستمر هذا اللقب حتى عهد بطرس الأول (1682 – 1725م) الذي اتخذ لنفسه لقب إمبراطور في عام 1721، وبقي هذا اللقب حتى نهاية حكم أسرة رومانوف، التي حكمت روسيا القيصرية بين (1613 – 1762). للمزيد من التفاصيل ينظر:
The Romanov, Cottorp Dynasty, Cited Wikipedia the free Encyclopedia, http://enwikpedia.org.

1. ازدادت في عهده مساحة دولة روسيا من (400) أربعمائة ألف كيلو متر مربع إلى ما يزيد عن مليوني كيلو متر مربع، إذ كان يضم الأراضي إلى دولته من خلال إتباع طرق دبلوماسية ماهرة، وشراء الأراضي، والاستحواذ عليها باستخدام القوة[46].

2. أصدر مجموعة قوانين خاصة بتيسير أمور الدولة تسمى (أكسود يتبتنك) مما ساعد في ترسيخ النظام الإقطاعي للملكية وتشكيل طبقة النبلاء التي صار يعتمد عليها الحكم القيصري، كما اهتم بالقوات العسكرية كتنظيم الجيش وتدريبه وتسليحه.

3. قام إيفان الثالث بإعادة تخطيط وبناء موسكو وتشييد قصر جديد في الكرملين بعد استدعاء مهندسين ومعماريين من دول أخرى ولاسيما إيطاليا لتجديد الكرملين، وبناء كاتدرائية مريم العذراء[47].

4. تم في عهده اعتماد شعار جديد لدولة روسيا وهو عبارة عن نسر ذي راسين والصولجان والكرة والعرش ويعني النسر ذو الرأسين: إن موسكو تعد نفسها روما الثالثة وارثة القسطنطينية الساقطة وروما المهدمة على حد تعبير فيلوفيه الراهب من مدينة بسكوف، وهي ما تسمى بنظرية الرومات الثلاث (روما، القسطنطينية، موسكو)، وإن روما الثالثة أي موسكو باقية إلى الأبد، ويدل ذلك على إنهم أصبحوا يعدون أنفسهم امتداد الإمبراطوريات الثلاث وإن عليهم دور مهم يجب أن يؤدونه[48].

5. قرر إيفان الثالث حساب بداية السنة ليس من 1 آذار كما كان معتاداً في روسيا، بل اعتباراً من 1 أيلول.

6. أمر إيفان الثالث بأن يلقبوه بالأمير العظيم لموسكو والقيصر لعموم روسيا، واعترف أمير ليتوانيا بهذا اللقب في عام 1494م.

7. ازدراء إيفان الثالث نظام الخلافة المتوارثة، فقد جرد من حق الخلافة بالإرث الذكور الأبكار الذين يلدون من أول زواج، ثم عين له شريكاً في الحكم ابنه فاسيلي الثالث، ابنه من صوفيا، الوريثة الشرعية للإمبراطورية البيزنطية[49].

الخاتمة:

(46) إيفان الثالث أول قيصر روسي، المصدر السابق، ص1.
(47) هاشم التكريتي، المصدر السابق، 2003؛ أكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية منذ العصور القديمة حتى اليوم، ترجمة: مصطفى فقير، موسكو، د.ت، ص23 – 27.
(48) رولان موسنيية، المصدر السابق، ص172.
(49) المصدر نفسه، ص172.

يعد إيفان الثالث من أبرز رجال الدولة في روسيا الإقطاعية، حكم روسيا 43 عاماً، كان يتصف بعقل عبقري ورؤيا سياسية واسعة، ويعد توحيد الإمارات الروسية في دولة واحدة دليلاً واضحاً على ذلك، إذ حلت دولة روسيا محل إمارة موسكو، مثلما عمل لويس الحادي عشر لفرنسا، وهنري السابع لإنجلترا، وفرديناند وإيزابيلا لأسبانيا والإسكندر السادس للبابوية.

ومن جانب آخر جعل إيفان الثالث نظام الدولة نظاماً قيصرياً تقمع فيه أية قرائن للانقسام أو الانفصال أو للحريات سياسية كانت أم اقتصادية أم عسكرية.

ومن الجدير بالذكر إن الأمير إيفان الثالث كان متفوقاً في قيادة الدولة الروسية بجانبيها، العسكري إذ تمكن بقواته العسكرية أن يوحد كل الأمارات الروسية تحت عنوان واحد، وكذلك الجانب المدني، وعلى الرغم من إن الأمير إيفان الثالث كان حاكماً صارماًَ وقاسياً إلا انه قاد الدولة قيادة إدارية منتظمة، استطاع من خلالها أن يجعل روسيا من الدول المتقدمة والتي يحسب لها حساب.

ملحق رقم (1)[50]

الأمراء والقياصرة الذين حكموا روسيا حتى عام 1917

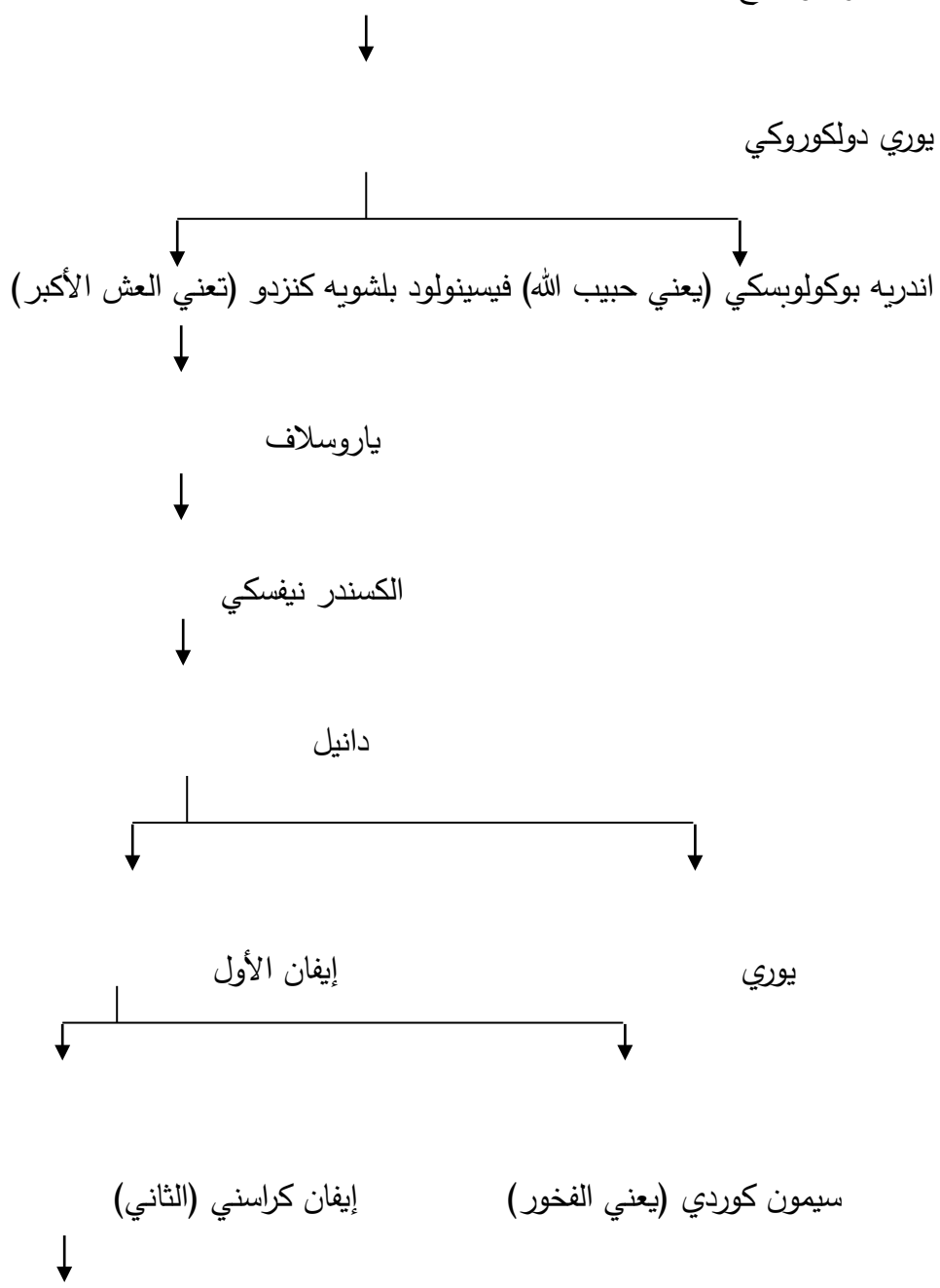

(50) هاشم التكريتي، المصدر السابق، **2003/3/3.**

دمتري دونسكوي (1359 – 1389)

↓

فاسيلي الأول (1389 – 1452)

↓

فاسيلي الثاني (يتومني) الأعمى

(1425 – 1462)

↓

إيفان الثالث (1462 – 1505)

↓

* إلى حد فاسيلي الثالث كان اللقب هو الأمير الكبير.

فاسيلي الثالث (1505 – 1533)

↓

** بدل اللقب إلى (تسار) أي القيصر الروسي فقط في عام 1547.

إيفان الرابع (الرهيب) (1533 – 1584)

↓

هنا انتهى حكم أسرة روريك

فيودور (1584 – 1598)

↓

هو من غير أسرة روريك

بوريس كودونوف (1598 – 1605)

↓

دمتري الدعي الأول (1605 – 1606)

↓

فاسيلي شويسكي (1606 – 1610)

↓

مجلس البويار السبعة (1610 – 1613)

↓

ميخائيل رومانوف ابن فيودور (1613 – 1645)
الكسي (1645 – 1676)
فيودور (1676 – 1682)
إيفان الخامس
بطرس
بطرس الأول (1682 – 1725) حول العاصمة إلى سان بطرسبورغ وحول
لقب التسار إلى الإمبراطور عام 1721.
من سنة 1682 حتى سنة 1689 كان تحت وصاية أخته صوفيا.
كاترين الأولى (1725 – 1727) زوجة بطرس الأول.
بطرس الثاني بن الكسي (1727 – 1730)
أنا ايفانوفنا (1730 – 1740)
إيفان انطونوفج (1740 – 1741)
إليزابيث بنت بطرس الأول (1741 – 1762)
بطرس الثالث بقي عدة شهور، وهو بن أنا بنت بطرس الأول (كان أحمق).

كاترين الثانية (1762 – 1796) زوجة بطرس الثالث قامت بانقلاب ضده.

↓

بافل الأول (1796 – 1801) كان ناقم جداً على أمه لأنها كانت تعشق الرجال كثيراً فأصدر قرار يحرم على المرأة اعتلاء العرش.

↓

الكسندر الأول (1801 – 1825)

↓

نيقولا الأول (1825 – 1855) هو أخو الكسندر الأول (حدثت في زمانه ثورة الديسمبريين).

↓

الكسندر الثاني (1855 – 1881) اغتيل من قبل جمعية إرادة الشعب (الشعوبيون) واشترك اليهود في عملية الاغتيال

↓

الكسندر الثالث (1881 – 1894)

↓

نيقولا الثاني (1894 – 1917)

قيام ثورة أكتوبر 1917.